جامعـة عيـن شمـــس

كـــلـــيّـــة الآداب

قسم اللغـــة العربيـــة

الغربة والحنين في شعر العصر المملوكي

(648هـ - 923هـ)

إعداد الطالب

إسماعيل طه محمد حروب

إشراف

الأستاذ الدكتور

محمد يونس عبد العال

أستاذ الأدب العربي بجامعة عين شمس

الأستاذ الدكتور

إبراهيـم عوض

أستاذ الأدب والنقد بجامعة عين شمس

قدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة عين شمس

1435 هـ -2015 م

الإهداء

إلى من حرستني بقلبها ودعائها دومًا .....أمِّي

إلى قدوتي ومعلّمي ونبراسي في الحياة .....أبي

إلى من شاركوني حنان أمِّي وتعليم والدي.....إخوتي

إلى من شاركتني خطوات البحث ...فكانت خير معين لي .....زوجي

إلى الأزهار التي ترفل في بيتي.....

إلى الشموع التي أضاءت لي الحياة.....محمد و ليان

إلى من غمروني بحبهم وحنانهم .....أشقّائي في مصر الأعزاء

إلى من احتضنتني طوال سنوات دراستي .....مصر الحبيبة (أم الدنيا)

شكر وتقدير

يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان ، وخالص المحبّة والوفاء من الأستاذين والعالمين الجليلين:

محمد يونس عبد العال & إبراهيم عـــــوض

اللَّذيْن تكرَّما بالإشراف على هذه الرسالة ، ومنحاني نصائحهما وتوجيهاتهما ، فنهلت من نبع علمهما حتى ارتويت، وكلما قصدتهما شفيْت .

فالشكر كل الشكر لمن قدّم لي مشورة ونصحا ليرى هذا العمل النور.

فهرس المحتويات

اسـم الموضوع	رقـم الصفحة
الإهداء.....	ب
الشكر والتقدير.....	ت
المقدّمة.....	خ
التمهيد.....	1 – 36
الفصل الأول: الغربة والحنين(المعنى–التأصيل–الألوان–المثيرات)	37 – 128
المبحث الأول : الحنين والغربة لغة واصطلاحاً	38
المبحث الثاني : تأصيل ظاهرة الغربة والحنين	45
المبحث الثالث: ألوان الاغتراب	
أولاً : الاغتراب عن الوطن.....	54
ثانيا : الاغتراب عن المجتمع	63
ثالثاً : غربة الذات.....	71
رابعاً : اغتراب الروح (الغربة الدينية).....	79
المبحث الرابع : مثيرات الحنين	
أولاً : الطير – الحمام	91
ثانياً : لمعان البروق.....	102
ثالثاً : هبوب الرّياح ومَرِّ النسيم	111
رابعا : الشّيب :.....	116
خامسا: طيف الخيال :.....	118
سادسا : حنين الإبل	122
سابعا: صوت حادي الإبل	123
ثامنا: قوافل الحجيج	124
تاسعاً : النباتات الطبيعية	125
عاشراً: غروب شمس النهار.....	126
حادي عشر: صوت أجراس الكنائس	127
الفصل الثاني: الحنين إلى الديار	129–290
المبحث الأول: *حنين بكاة الأطلال*.....	131
الوقوف على الأطلال.....	133
سؤال الأطلال وجوابها.....	144
التحية والسلام.....	153
الوفاء بالعهد.....	158
الدعاء بالسقيا.....	161
البكاء على الأطلال.....	169
المعاناة والألم لدى الوقوف على الأطلال.....	175
الوشاة والعذّال واللائمون.....	182
وصف لحظة الوداع.....	188

الحيوانات والنباتات في الديار بدلا من المحبوب.....	193
المبحث الثاني: حنين المدن :	
أولا : حنين المدن العامرة :.....	205
1–القاهرة	206
2–دمشق	217
3–حماة	227
4–حلب	232
5–القدس	235
6–الخليل	238
7–بُرَع	242
8–بعلبك	244
ثانياً : حنين المدن المنكوبة :	
1–بغداد	248
2–دمشق	256
3–القاهرة	269
4– سبتة	274
المبحث الثالث: تفضيل البلدان في شعر الحنين إلى الأوطان :	
أولاً: مدح الاغتراب	278
ذمّ الاغتراب	279
ثانياً: المفاضلة بين البلدان:	
1– مصر(القاهرة)	282
2–دمشق	285
3– حماة	288
الفصل الثالث: اتجاهات شعر الغربة والحنين:	291–464
المبحث الأول: حنين الأحبّة	293
المبحث الثاني: حنين الأصدقاء	324
المبحث الثالث: حنين الأهل والأقرباء	344
أولاً : حنين الوالدين	345
ثانياً: حنين الأبناء	351
ثالثاً: حنين الأخوة	357
رابعاً: حنين الأقارب	360
المبحث الرابع: حنين شرب الخمر	
أولا: الحنين إلى شرب الخمر.....	363
ثانيا: الأيّام والليالي.....	365
ثالثا: وصف المكان (الديارات)	367
رابعا: الساقي والنّدامى.....	369
خامسا: الرهبان والقساوسة	370
سادسا: المحبوب	372

سابعا: التصريح بشرب الخمر	374
ثامنا: ذكر الحانات وأسمائها	375
تاسعا: ذكر ما تفعله الخمرة بشاربها.....	397
عاشراً: وصف الخمر	398
المبحث الخامس: حنين المكرهين	
أولا: حنين المسجونين.....	377
ثانيا: حنين المنفيين(المطرودين)	381
ثالثا: حنين المجاهدين	386
المبحث السادس: الحنين الديني	
أولاً: حنين الرسول(ص)	397
ثانياً: ثانيا: الحنين الإلهي	426
المبحث السابع: الحنين والتشوّق للمقدّسات	
أولاً : مكّة	440
ثانيا: طيبة.....	447
ثالثا: القدس	452
رابعـاً: الطبيعة ومظاهرها المختلفة في الرحلة إلى الديار المقدسة	455
خامساً: الإبل وسيلة المواصلات إلى الديار المقدّسة.	459
الفصل الرابع : الدراسة الفنية لشعر الغربة والحنين في العصر المملوكي:	465-600
المبحث الأول: بناء القصيدة	466
المبحث الثاني: اللغة	486
المبحث الثالث: الأسلوب.....	503
المبحث الرابـع: الصورة الشعرية	541
المبحث الخامس: الموسيقا.....	561
فهرس المصادر والمراجع :	
المصادر المخطوطة	582
المصادر والمراجع المطبوعة.....	583
الرسائل الجامعية	612
الدوريّات	614

المقدّمة

الحمد للّه الذي شرّفنا بنعمة الإسلام، وهدانا إلى الإيمان، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الأمين، بعثه الله من بين العرب رحمةً للنّاس أجمعين، وبعد:

تباينت نظرة الأدباء والنقاد حول العصر المملوكي، أدبه وعناصر التجديد فيه، فمنهم من نعته بأوصاف مجحفة، كالانحطاط والتقليد والمبالغة في الصنعة وغيرها، في حين يرى كثيرون منهم أنّ العصر المملوكي محطَّةً مهمَّةً من محطّات الأدب العربي، وعصر له خصوصيّتُهُ التي تميّزه عن غيره، فمن أبحرَ فيه وتعرّف على أدبائه وشعرائه، عرف قدرهم العالي ومستواهم الرفيع في الأدب شعره ونثره، وهم بذلك لا يقلّون عمّن سبقهم شأناً إذ إنّنا عند الحكم على أدب عصر ما، لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار الظروف التي أحاطت به من جوانبه المختلفة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهو عصرٌ تكالبت فيه الأمم والشعوب على البلاد العربيّة، فطمعوا في خيراتها والسيطرة على أراضيها لمكانتها الجغرافية.

أضف إلى ذلك انعدام الحافز لدى الشعراء من الحكّام والولاة أصحاب النفوذ، كونهم أو غالبيّتهم من عناصر غير عربيّة، كانوا من المماليك تدرّجوا حتى وصلوا الحكم، فلم يهتمّوا بالشعر والشعراء، فقلّ التكسّب به، ومال أكثر الشعراء إلى الحرف والمهن يسدّون بها عوزهم وحاجة أسرهم، فكان منهم الورّاق والكحّال والجزّار والحمّامي، فلم يُفرغوا الوقت الكافي لنظم الشعر وتجويده والعناية به، وبالرغم من ذلك جاءت أغلب قصائدهم في غاية الرّوعة والجمال، عبّرت عن حالهم ومعانيهم.

ولعلّ اهتمام الشعراء لمذهب السهولة، ومجاراة روح العصر في صورهم وأساليبهم ولغتهم أساس حكم النقّاد عليهم بالتقصير والضعف، فكلّ عصر له خصوصيته التي تميّزه عن غيره في اللّغة والمادة التي يستقون منها صورهم وأخيلتهم، فالعصر الجاهلي يختلف عن الذي يليه من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهكذا فمن الظلم المجحف مقابلة أدب العصر المملوكي بظروفه التي

أحاطت به مع أدب العصر العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وبدايات العصر العباسي.

وبالرغم من ذلك يبقى العصر المملوكي واحداً من العصور الأدبية المهمّة في تاريخ أدبنا العربي، ويبقى التراث الأدبي في ذلك العصر شامخاً في وجه منتقديه، ففيه أُلِّفت المصادر والموسوعات الضخمة الماثلة أمام أعيننا، والتي لولاها لضاع كثير من النصوص التاريخية والأدبية مع من ضاع إثر الحملات الغاشمة على بلاد المسلمين، ولا ننسى التتار حين أودعوا مياه دجلة ثمرة علمائنا وأدبهم وفلسفتهم، كما أنّ هذا العصر شهد بروز القوّة الحربية الضارية لدى المسلمين والتي مثّل العنصر المملوكي أغلبيّتها، فتمّ لها النصر على الصليبين والمغول والتتار الذين كادوا أن يقتلعوا جذور الأمّة ويطمسوا تراثها وتاريخها وحضارتها، فعلماء الأمّة كما هو الحال في كلّ زمان ومكان هبّوا لنجدة تراثهم وحضارتهم، وبذلوا في ذلك الغالي والنفيس، فانكبّوا على العلم والأدب والحضارة الإسلامية يحفظون ما بقي منه، وهذا جعل المكتبة العربية تزخر بكمٍّ هائل من المخطوطات التي ألّفت في شتّى ميادين المعرفة.

لا بدّ أنّ هذا كلّه كان دافعاً وحافزاً على اختيار العصر المملوكي مجالاً للدراسة، وذلك اعترفاً بأهميّته وأهميّة أدبه وعلمه، وكثرة الشعراء الذين نظموا في اتجاهات مختلفة من اتجاهات الشعر العربي، وتعبير الأدب عن كثير من جوانب الحياة في ذلك العصر، أهمّها الحوادث التي تركت آثارها ظاهرة على البلاد العربيّة بأسرها.

ومصر مركز الحكم في عصر المماليك، ومنارة الإسلام والعلم والأدب، خصوصاً بعد انقضاء الخلافة العباسيّة في بغداد على يد التتار، وفتحت ذراعيها أمام العلماء والأدباء العرب والمسلمين، وشهدت عدداً كبيراً من الشعراء الذين أثروا الأدب في تلك الحقبة بإنتاجهم الغزير وعطائهم الواسع في شتّى الأغراض الشعرية، فوصلنا دواوين بعضهم، في حين بقي كثير منها مخطوطاً في بطون المكتبات، تحتاج إلى جهود الدارسين لتخرج لنا في حلّة جديدة من خلال جمعها ودراستها، فمصر حافظت على أصالتها وتراثها وحضارتها، لهذا اتصلت الدراسة في كثير من

جوانبها بشعراء مصر، وارتكزت على معانيهم وأغراضهم، سواءً أكانوا مصريين أم وافدين، قضوا شطراً كبيراً من حياتهم فيها.

وتضافرت عوامل عدّة جعلتني أختار هذا الموضوع دون غيره، منها: محاولة نفض الغبار عن جزء بسيط من هذا العصر، وتقديم لمحة موجزة عن العصر المملوكي؛ الذي اتّهم كما قلنا بالضعف والانحطاط والتقليد، وذلك بدراسة اتّجاه شعريّ من اتّجاهات الشعر العربي (الغربة والحنين)، حيث أصبح هذا الاتّجاه فنّاً قائماً بذاته، ينظم الشاعر فيه قصائد خاصّة، يبثّها أشواقه وأحاسيسه التي اختلجت صدره إثر غيابه عن وطنه، أو فراقه لأهله وأحبّته وخلّانه، في حين كان هذا الفنّ يَرِدُ في ثنايا قصائد أخرى في العصور السابقة، ومن العوامل أيضاً: بيان الجوانب التي أبدع فيها الشعراء المغمورون الذين لم تسمح لهم الظروف بالشهرة والذيوع لدى القرّاء.

لذا ارتأيت أن تكون الدراسة متّصلة بأدب هذا العصر، علّها تنفض غباراً عن إسهامات الشعراء في ميادين الأدب، وتكون إضاءة إلى رهافة الحسّ وإبداع الشعراء عن معانيهم ومشاعرهم، وهي من نعم الله وفضله على الإنسان، فليس له أن ينسى المكان الذي عاش فيه أجمل أيّام حياته، وشهد حبّه لمحبوبته واجتماعه بأصدقائه، إضافة إلى الأهل والأقرباء، هذا ومن ناحية أخرى فإنَّ حنين الإنسان وشوقه للذات الإلهيّة، ورؤية وجه النبي الكريم من أعظم الاتّجاهات التي عبّر عنها الشعراء في تلك الفترة.

ولكي يكون عنوان دراستي متّصلاً اتّصالاً وثيقاً بموضوع الدراسة، تتوافر فيه الدّقّة ارتأيت أن يكون على النحو الآتي:

الغربة والحنين في شعر العصر المملوكي

(648هـ-923هـ)

إلّا أنّ هناك بعض المشكلات التي واجهت الباحث، فيما يتعلق بجمع مادّة البحث؛ وذلك لأنّ الكتب التي ترجمت وأُلِّفت حول العصر المملوكي محدودة، إضافة إلى رجوع البحث إلى الموسوعات واستخدامها في جمع أشعار الغربة والحنين، ومنها أيضاً: اعتماد البحث على عدد من الدواوين المخطوطة؛ والتي تحتاج إلى جهود الدارسين لدراستها وبعثها في حُلَّةٍ جديدة، يفيدُ منها الباحثون والدارسون.

أمّا أمّا فيما يتعلق بهيكل البحث، فقسّمته إلى تمهيد وأربع فصول وخاتمة، **التمهيد** : فتناول فيه الباحث العصر المملوكي من جوانبه المختلفة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينيّة والعلميّة، فالقارئ لهذا البحث لا بدّ له من أرضيّة صلبة يقف عليها حتّى يتعرّف على الظروف والبيئة التي أحاطت بالشاعر في أثناء نظمه لقصيدته، وما هي العوامل التي اضطرته للغربة والسفر، وهجر الأهل والأقرباء والخلّان، فضلاً عن ابتعاده عن أحبّته.

أمّا الفصل الأوّل : فأفرده الباحث لبيان معنى الحنين والغربة لغة واصطلاحاً في مبحثه الأول، وفي المبحث الثاني أصّل الشاعر لظاهرة الغربة والحنين وبيّن جذورها في الأدب العربي من خلال نصوص شعريّة من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، وفي المبحث الثالث تحدّث الباحث عن ألوان الاغتراب، الغربة عن الوطن والمجتمع وغربة الروح والذّات، وفي المبحث الرابع بيّن الباحث أهم مثيرات الحنين في نفس الشاعر.

وفي الفصل الثاني : تناول فيه الباحث حنين الأوطان، فقسّمه إلى ثلاثة أقسام: الأول: حنين بكاة الأطلال والديار حال وقوفه بها، وما يتبع ذلك من تحيّة وسؤال داعياً لها بالسقيا، مبيّناً الألم والمعاناة عند وقوفه بها متذكراً أزمانه الماضية، فالشاعر وفيّ بعهده ووعده، والقسم الثاني: أفرده الباحث للحديث عن الحنين للمدن العامرة والمدن المنكوبة المدمّرة، أمّا القسم الثالث: فأفرده الباحث للحديث عن تفضيل البلدان في شعر الحنين إلى الأوطان.

أمّا الفصل الثالث : فأفرده الباحث للحديث حول اتّجاهات شعر الغربة والحنين، فجاء في سبعة مباحث، الأول: جاء في حنين الأحبّة، والثاني: حنين الأصدقاء، في حين تناول الباحث في الثالث: حنين الأهل والأقرباء، كالوالدين والأبناء والأخوة والأقارب، أمّا المبحث الرابع: فجاء في الحنين إلى شرب الخمر، معرِّجاً على الأيّام والليالي والساقي والندامى والرهبان وذكر الحانات وأسمائِها وما تفعله الخمرة بشاربها، وفي المبحث الخامس: تحدّث عن حنين المكرهين والمسجونين والمجاهدين، وجاء المبحث السادس: في الحنين الديني إلى النّبي (ص) والذّات الإلهيّة، والمبحث السابع: جاء في الحنين إلى المقدّسات، مكة ومدينة طيبة والقدس الشريف.

أمّا الفصل الرابع : فاختصَّ بالدراسة الفنيّة لشعر الغربة والحنين، قسّمته إلى خمسة مباحث، الأوّل: تناول بناء القصيدة، من حيث حسن المطلع والعرض وحسن التخلّص، أمّا الثاني: فأُفرد لدراسة لغة الشعراء؛ وما تميّزت به من السهولة والعذوبة والرقّة، فجاءت ألفاظهم مستساغة بعيدة عن الغرابة والتعقيد وصلابة التراكيب، ويتناول المبحث الثالث: الأسلوب والبديع في شعر الغربة والحنين، والمبحث الرابع: جاء في الصورة الشعريّة والخيال، أمّا المبحث الخامس: فتناول موسيقا الشعر بنوعيها: الخارجية المتمثّلة في الوزن والقافية، والداخلية المتمثّلة في موسيقا الحروف والكلمات وتكرار كلّ منها.

وأنهى الباحث دراسته بخاتمة ضمّنها أهم النتائج التي توصّل إليها خلال دراسته، وكان لزاماً على الباحث أن ينهي دراسته بفهرس المصادر والمراجع التي تطلّبها بحثه.

والمنهج الذي اعتمده الباحث كان المنهج الوصفي التحليلي مع الاعتماد على المناهج الآتية: المنهج النفسي والمنهج التاريخي، ومنهج التحليل الفني، وذلك أنّ الدراسة لا تسير في اتّجاه معيّن.

وفيما يتّصل بالمصادر والمراجع، فقد نوّع الباحث فيها، فكان للمخطوطات حضور بارز في البحث، منها: ديوان ابن حجّة الحموي، وديوان شمس الدين

العمري، وديوان الموازيني، وديوان أبي المواهب الشاذلي، وديوان برهان الدين القيراطي، وديوان إبراهيم الجعبري، وديوان ابن مكانس، وكان اعتماد الباحث على الموسوعات والكتب التي ترجمت للعصر المملوكي كبير، فمن المصادر المطبوعة: كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسخاوي، وكتاب" البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" للشوكاني، و"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني، واعتماده على كتاب " شذرات الذهب" للحنبلي، و"نفح الطيب" للمقّري، و"نهاية الأرب" للنّويري.

وكان اهتمام الشاعر بالمراجع المطبوعة كبيراً أيضاً، أفاد منها الباحث في تحليله للشعر ونقده، منها: "تاريخ الأدب العربي" وكتاب "الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك" لعمر موسى باشا، وكتاب "الأدب في العصر المملوكي" لمحمد زغلول سلّام، و "الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء" لأحمد فوزي الهيب، وكتاب "فنّ الغزل في الشعر المملوكي" لحسن عبد الرحيم سليم.

أمّا فيما يتعلق بكتب النقد، فنوّع الشاعر في استخدامها، منها كتاب إبراهيم أنيس "الأصوات اللّغوية" و "موسيقى الشعر" وكتاب "تحرير التحبير" لابن أبي الإصبع، و "المثل السائر" لابن الأثير، و "خزانة الأدب" لابن حجّة الحموي، و "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، وكتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر.

وأخيراً فإنّ هذا ما استطعت تقديمه في هذه الدراسة، محاولاً الإلمام بها في جميع جوانبها، ولا أزعمُ أنّي بلغت في ذلك الغاية، ولا أتيتُ بما فيه الكفاية، وإنّي لناظر بعين التقدير والاحترام لكلّ من يسدي إليّ ملاحظةً يسدّد فيها خُطايَ، أو إرشاد أتلافى فيه الخطأ، فإن أصبت فمن الله، وإن قصّرتُ فمن نفسي، والله الموفّق، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أنّ الحمدُ لله ربِّ العالمين

التمهيد:

أولا : الحالة السياسية :

قامت الدولة المملوكية على طائفة المماليك، وقبل أن نبدأ في بيان الأجواء السياسية في ظل هذه الفئة التي حكمت البلاد لمدّة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان سنتوقف عند المعنى اللّغوي والاصطلاحي لكلمة "مملوك".

مملوك: اسم مفعول مشتق من الفعل ملك ، وفي اللغة تعني: العبد، ويقال: عبدُ مملكةٍ إذا سُبِيَ ولم يُملَكُ أبواه، والمملوك: المقرُّ بالملوكِيَّة أي: العبوديَّة(1)، وهنا ينجلي الفرق واضحا بين مصطلحي العبد والمملوك، فالعبد ما كان لأبوين عبدين، أمّا المملوك فلأبوين حُرّين.

وتعني هذه اللفظة اصطلاحاً: تلك الفئة من الرقيق الأبيض، الذين أصبحوا رقيقاً نتيجة ظروف مختلفة كالأسر في الحروب أو اختطافهم وبيعهم أو شرائهم من تجّار أسواق النخاسة الذين رأوا في البلاد العربية سوقاً رائجاً وبضاعة نافقةً لهؤلاء المماليك(2).

وقد انقسمت الدولة المملوكية إلى قسمين، الأولى: المماليك البحريّة، وامتدت من عام 648هـ إلى عام 784هـ، وسميت بهذا الاسم لأنهم سكنوا القلعة في جزيرة الروضة على النيل وكان النيل يعرف بالبحر، لذلك عرفوا بالمماليك البحرية، أما الأخرى فتُعرَف بالمماليك الجركسية أو البرجية، التي امتدت من عام 784هـ إلى عام 923هـ، وسميت بذلك نسبة إلى الأبراج التي كانوا يقطنونها في القلعة أو في أرجاء المدينة(3).

وكانت هذه القسمة تبعاً لاختلاف أصول كلّ منهما ، فدولة المماليك البحرية يعود أصلهم إلى أجناس مختلفة وأماكن شتّى، أهمها بلاد القفجاق وتركستان وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهرين، وكانت الفئة التي تقطن خلف هذين النهرين هي الفئة التركية في غالبها، أما المماليك الجركسية فهم الذين تمّ جلبهم من بلاد شرق البحر الأسود وشبه جزيرة القرم وشمال بحر قزوين(4).

---

(1) – ابن منظور، **لسان العرب**، مادة "ملك"، الزمخشري، **أساس البلاغة**، مادة "ملك"، الزبيدي، **تاج العروس**، مادة "ملك"، ابن سيدة، **المخصص**، 328/1 .

(2) – العبّادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، ص11، عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**، ص1 .

(3) – محمد الحدّاد، **القفجاق**، ص43، أحمد عوف، **أحوال مصر من عصر لعصر**، ص70.

(4) – نقولا زيادة، **دمشق في عصر الممالك**، ص24، حمدي حسن، **دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، ص155.

وتعـود بـدايات الاعتمـاد علـى المماليـك إلـى القـرن الثالـث الهجـري، حيـث اسـتخدمهم الخليفـة العبّاسـي المـأمون فـي تـدعيم نفـوذه السياسـي، و تبعـه فـي ذلـك الخليفـة المعتصـم بـالله، وحـرص مؤسسـو الدولـة الطولونيـة والإخشـيدية علـى الإكثـار مـن المماليـك فـي سـبيل مواجهـة الخلافـة العباسـيّة فـي بغـداد، كمـا اهـتم الفـاطميّون أيضـاً بهـم فـي تـدعيم حكمهم لمصر مدة تزيد على قرنين من الزمان(1).

وقضـى الأيوبيـون علـى حكـم الفـاطميين فـي مصـر، إلّا أنَّ الخـلاف الـذي حـدث بـين خلفـاء صـلاح الـدين كـان دافعـا للإكثـار مـن شـراء الممالـك، ظنـاً مـنهم أنَّ هـذه الفئـة هـي الدعامـة الأساسـية لفـرض حكـم كـلٍّ مـنهم علـى الآخـر(2)، والمتتبـع بالدراسـة لتـاريخ المماليـك يجـد أنَّ الصـالح نجـم الـدين أيـوب فـاق غيـره مـن سـلاطين الأيـوبيين حيـث كـان أكثـرهم شـراء للمماليـك الأتـراك، وبـذل أمـوالاً طائلـة فـي سـبيل ذلـك حتـى أصـبح الجـيش الأيوبي يعتمد عليهم كليَّاً بعد أن تخلّص الصالح من العنصر الكردي.

وفـي ذلـك نظـم أحـد الشـعراء مبينـاً كثـرة شـراء بنـي أيـوب للمماليـك، وأنهـم جلبـوا الشـر والضرّ للمجتمع، ونلحظ ذلك في قوله(3): [البسيط]

الصـــالح المرتضـــى أيـــوب أكثـــر مـــن تُـــرْكٍ بدولتـــه يـــا شـــرَّ مجلـــوب

لا واخـــــذ الله أيوبـــــاً بفعلتـــــه فالنّـــاس كلّهـــم فـــي ضـــرّ أيـــوب

وتختلف أعمار المماليك عند شرائهم، فالصغير تربيه النساء حتى يكبر، أمّا الشاب فيرسل إلى أماكن مخصصة لتنشئة المماليك وتدريبهم، فيتمّ تعليمهم وتهذيبهم، ويشرف عليهم فقهاء متخصصون يبدؤون بتعليمهم القرآن الكريم والحديث الشريف حتى إذا أصبح جاهزاً يبدأ في إعطائه دروساً في الفقه، وبهذا يكون المملوك قد ملك الناحية الروحية التي تؤهله ليكون قادراً على خوض المعارك والحروب، هذا بعد أن يخضع لتدريبات شاقّة في مجال فنون القتال من قبل فرسان أشدّاء مقاتلين.

وهنـا نسـتطيع أن نقـول إنَّ مفهـوم الـرقّ لا ينطبـق علـى هـؤلاء المماليـك(4)، لأن مجـالهم لـم يكـن خدمـة البيـت أو الزراعـة تحـت إمـرة سـيده بـل كـان فارسـاً حـرّاً، وتعـدى الأمـر ذلـك وأصـبح فـيهم أمـراء وقـادة للجـيش، كـذلك فـإنَّ اقتنـاء المماليـك لـم يكـن حكـراً علـى السـلاطين فقـط بـل الأمـراء أيضـا كـانوا يشـترونهم لخـدمتهم، وكانـت تـربط المماليـك

---

(1)– علاء طه رزق، **عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك**، ص15.

(2) – العبَادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر**، ص11، راغب السرجاني، **قصة التتار من البداية إلى عين جالوت**، ص226.

(3) – لابن تغري بردي، **مردّ اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة**، 18/2 .

(4) – أحمد عوف، **أحوال مصر من عصر لعصر**، ص 74.

بسيّدهم رابطة قويّة، رابطة الابن بأبيه والطالب بأستاذه، يولونه الطاعة والولاء، ويثورون على من يتعرّض لهم بسوء ولا يقبلون لهم الإهانة.

ولا نغفل الدور البارز للمماليك في الدفاع عن البلاد العربية، حيث أبلوا بلاءً حسناً أثبت للجميع أنَّ ما صرف عليهم من أموالٍ ووقت لم يذهب هدراً، فهم من ردَّ الصليبيين على أعقابهم في معركة المنصورة دون إغفالٍ الدور المصري في هذه المعركة، وكان من نتائج المعركة أسر لويس التاسع وعدد كبير من جنده، وكان لفرسان المماليك وأبرزهم أقطاي والظاهر بيبرس شرف قيادة المعركة خاصة بعد الظروف الصعبة التي تعرّض لها الجيش وأهمها: وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، على أننا لا نغفل الشجاعة ورباطة الجأش التي تحلت بها زوجة الصالح شجرة الدرّ حين أخفت وفاته، حتى لا يصاب الجند بالفزع وتحبط روحهم المعنوية.

وتم التفاوض على إطلاق سراح لويس التاسع وجنده، واتفق على مبلغ قدرة ثمانمئة ألف دينار(1)، وكان هذا الانتصار ممهداً أساسياً لبروز فئة المماليك وتدرجهم في الوصول للحكم ولولا هذا الانتصار لخضعت مصر أبرز البلدان العربية في تلك الفترة تحت حكم الصليبين، وبعثت شجرة الدرّ رسولاً إلى حصن كيفا(2)، يستقدم ابن الملك الصالح توران شاه ليستلم الحكم خلفاً لوالده، وبعد تسلّمه الحكم لم يرع للمماليك دفاعهم عن مصر ولا لزوجة أبيه التي حفظت له الملك ، بل فضّل عليهم طائفة كان قد أحضرها معه، فتمَّ الاتفاق بين شجرة الدرّ وقادة المماليك على قتل توران شاه، وكان ذلك بعد أيام من تسلّمه الحكم (3).

كل هذه الأحداث هيأت الظروف لاعتلاء المماليك عرش السلطنة، فبعد مقتل توران شاه اتفق قادة المماليك على تولية شجرة الدرّ سلطنة مصر وكان ذلك عام (648هـ)، وهذا التاريخ كان بداية لدولة المماليك في مصر(4).

وشجر الدرّ كانت جارية مملوكية اشتراها الصالح نجم الدين أيوب، وهي من أصول تركية، وبتوليها العرش قامت الدنيا ولم تقعد، وكان الرفض شعبياً من العامة والخاصة من العلماء والقضاة، فالدين الإسلامي رفض تولّي المرأة حكم المسلمين، حيث كان للعزّ بن عبد السلام موقف في ذلك، فتكلم على المنابر وفي تصانيفه على

---

(1) – قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، **الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري**، ص128، السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، 35/2.

(2) – **كيفا:** مدينة عظيمة تقع على ضفة الفرات بديار بكر، وهي الآن من المدن التركية، محمد الحسني القاسمي، **العواصم والقواسم في الذبّ عن سنة أبي القاسم**، 320/6.

(3) – ابن إياس، **بدائع الزهور**، 279/1.

(4) – بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية**، ص8 .